في ذكرى مبادرة السلام مع إسرائيل :

مبادرة للسلام والإسلام

أنيس منصور

تعقيب

إذا كان الذى يحدث فى الشرق الأوسط لعبا . فمن الواجب أن نعرف قواعد اللعب وننتظر نهاية الشوطين الأول والثانى . فإن لم تكن هناك نهاية . فليس هذا الذى نراه لعبا تقليديا . إنما هو سلسلة من الألعاب تداخل بعضها فى بعض . . وأصبح الموقف أكثر صعوبة . وأصبح البحث عن الدلالة نوعا من الجنون .

ومعنى ذلك أن الذى يحدث فى العالم العربى لن ينتهى الآن . وإذا انتهى بعد وقت . فهى مباريات بلا أهداف . لا غالب ولا مغلوب . ولذلك لابد أن تتكرر وأن يكون نجم المباراة هو الانتظام – وفى تاريخنا العربى مايدل على ذلك ألف مرة ! . .

فإن لم يكن لعبا بالنار فهو – إذن – جد فى جد . فما المعنى ؟ وماالحل ؟ . .

ان الذى نراه مشكلة معقدة . فنحن طرف فيها . فالدماء إسلامية عربية . والنار تتفجر فوق أسطح البيوت المجاورة . وكل بيوتنا كذلك . وإذا كانت صواريخ إيران قد عاثت فأصابت الكويت . فلن تطيش صواريخ العراق فى المرة القادمة . .

فهل هو « لعب وجد » معا ؟ إن صح ذلك . فنحن أمام مايسمى فى الفلسفة الوجودية بالعبث . فالعبث ليس معناه اللهو واللعب . ولكن معناه : أننا امام شئ ليس له معنى ولا دلالة ولاضرورة . ويرى الوجوديون : أن حياة الإنسان نفسها عبث . ويقصدون بذلك أن الإنسان ليس ضروريا لأحد . فلا هو ضرورى لتقدم الحياة . ولا الكرة الأرضية التى يعيش عليها ضرورية لهذا الكون . إنما الإنسان هو الذى يجعل لنفسه معنى وقيمة ودورا فى التاريخ . .

فهل بعض الزعماء العرب يشعرون أنهم بلامعنى . ويحاولون أن يكون لهم شئ من ذلك . ولهذا فهم يلعبون بالنار . مستخدمين أحدث الأسلحة الأمريكية والسوفيتية . .

فاللعب واحد عندهم فى صاروخ واحد نحو هدف واحد . فهم زعماء عبثيون أو عابثون ؟ ! . .

إن شيئا آخر غير « العبث » يحكم الشرق الأوسط : الخوف . والخوف هو الابن الشرعى لسوء الظن . ومن الخوف يتولد الحقد . والحقد هو « أدم » الحروب النفسية والدولية .

غير ان الذى نراه فى الشرق الأوسط يختلف كثيرا عن مناطق أخرى من العالم . فخلافات الشرق الأوسط بين شعوب لها تاريخ واحد ولغة واحدة ودين واحد ومصالح مشتركة متداخلة . فكيف لم تطح كل هذه الصفات الواحدة . فى أن توحد بينها ؟ كيف لم ينجح موقفها العدائى من إسرائيل أن يشد أزرها ؟ كيف لم تؤد مواجهتها من المصير الفلسطينى . إلى أن تلتصق أكتافها . وتشد أذرعها . وتسدد خطاها ؟ . .

هناك إجابتان غير صحيحتين :

الأولى : أن إسرائيل ليست هى المشكلة الكبرى . وأن العداء لها ليس سببا كافيا لتوحيد العرب . رغم أنهم حاربوها معا . وهزمتهم معا . ثم انتصروا عليها معا . .

بل هى كبرى المشاكل وأوقفها وأوجعها . .

الثانية : أن الخلافات بين العرب عميقة . وأنها أقوى من أى خلاف مع إسرائيل . وأن الخلاف الإسرائيلى عندما يشتد فإنه يخفى الخلاف الحقيقى بين

فى ذكرى مبادرة السلام مع إسرائيل :

مبادرة للسلام والإسلام

العرب . فهو يضعه فى الظل فقط ، أو هو يؤجله . حتى إذا فرغ العرب من إسرائيل ، تفرغوا لخلافاتهم معا ..

ولكن من السهل أن يحلوا مشاكلهم مع إسرائيل ، وتبقى مشاكلهم معاً ..

ولكن العرب الآن لم ينهوا لا من خلافهم مع إسرائيل ، ولامن خلافاتهم معا . فكل شىء قد انتعش من جديد : الحديد والنار والدم والمرارة والثأر والخراب والبحث عن مجرم يكون وحده مسئولا عن الذى هدم آبار الخليج وأحرقها هى وأهلها ..

وليس صحيحا أن الصراع الأسرائيلى العربى هو « أحد » الصراعات . إنما هو « واحد » الصراعات . إنه هو « الصراع » .. فإسرائيل قد حولت الشعب الفلسطينى إلى « لاجىء » فى أرضه ، وفى كل أرض . ومادامت إسرائيل قد اختارت القهر سلاحا فالإرهاب هو رد الفعل الوحيد من الشعب الفلسطينى . ومادام العرب ممزقين . فليس للشعب الفلسطينى جبهة واحدة . ولارأى واحد . ولاقائد واحد . ولذلك طالت الأيدى وقصرت السيقان . أو طالت الألسنة وقصرت الأيدى عن بلوغ شىء . بل إن الدول العربية العاجزة عن الفعل قد شجعت على الإرهاب . وذلك بأن أعطت المال الذى يشترى به الفلسطينيون السلاح . فحولت الفلسطينيين إلى شهداء فى كل أرض لايملكونها .. وأصبحت كل ساحة تحت أقدامهم أرضا مسروقة .. فكأن الأمة العربية قد أنكرتهم . شعبا ثم أسلوبا فى العمل من أجل تحرير الأرض والثأر للعرض ! ..

أما الصراع بين الدول العربية فهو قديم . وسوف يبقى . إنه صراع أبناء الأسرة الواحدة تباعدت بلادهم واختلفت أهواؤهم . وتباينت ثرواتهم وقدراتهم . فالذين عندهم عشرات الملايين لايملكون عشرات البلايين . والذين يحصون بأنصاف الملايين . يملكون مئات البلايين من الدولارات . فهناك شعوب عربية ثرواتهم فوق أكتافهم . وشعوب ثرواتهم تحت أقدامهم . وطبيعى أن تكون الصحارى بيننا : جفوة وغيرة وحسدا . كانت وسوف تبقى ..

وإذا كان ديننا يوصى بالجار . فإننا نفعل عكس ذلك تماما . وإذا كنا فى الأمثال الشعبية نقول إن النبى أوصى بسابع جار . ونفسر ذلك بأن الرسول عليه السلام قد أوصى بالسابع ولم يوصنا بالأول والثانى . فنحن إنما نلهو بمقدساتنا ونحول اللهو إلى جد دموى ..

فالذى حدث فى العشرين عاما الماضية لم يكن حربا مع الجار فحسب . بل حربا بين أنفسنا أيضا ..

ففى سنة ١٩٥٨ كانت الحرب الأهلية فى لبنان ، وتدخلت مصر ..

وفى سنة ١٩٦١ كادت تنشب حرب بين الكويت والعراق . وتدخلت مصر ..

وفيما بين ٦٢ و ١٩٦٧ كانت الحرب الأهلية فى اليمن ، وتدخلت مصر والسعودية ..

وفى سنة ١٩٦٤ كانت الحرب بين الجزائر والمغرب ..

وفى سنة ١٩٧٠ كانت الحرب أهلية فى الأردن . وتدخلت سوريا ..

وفى سنة ١٩٧٥ كانت الحرب أهلية فى لبنان . وتدخلت سوريا والدول العربية ، ولاتزال سوريا هناك ومعها إسرائيل أيضا ..

وفى سنة ١٩٧٧ تطاولت ليبيا على مصر . فكان أن قامت مصر بضربة تأديبية لليبيا لم يفق منها القذافى حتى الآن . ويخاف أن تتكرر . ولايزال القذافى يحشد قواته فى تشاد والسودان والكونغو وأثيوبيا وتونس والمغرب وإيرلندا والفلبين ..

وأخيرا هذه الحرب بين العراق وإيران — ويرى بعض فلاسفة التاريخ أن صدام حسين هو نابليون القرن التاسع عشر وهتلر القرن العشرين الذى هاجم روسيا . فلم يجد أمامه سوى الصحارى الشاسعة — أعظم مقابر الغزاة !

وهى جميعا حروب بين دول إسلامية . ثم هناك الحرب بين الصومال العربى المسلم وأثيوبيا المسيحية أو الشيوعية .

فإذا عدنا إلى الصراع الإسرائيلى العربى . ونظرنا إلى الخريطة بعين يهودية أصبح الموقف مفزعا . فليس من الصعب على أى إسرائيلى أن يتساءل : إذا كان العرب لايسالمون أنفسهم . وهم عرب ومسلمون . فكيف يسالمون دولة يهودية قامت بالسلاح وطردت شعبا فلسطينيا من أرضه ؟ إذا كان الزعماء العرب لايثقون فى بعضهم البعض . فكيف تثق إسرائيل فى أى أحد أو أى اتفاق أو أية معاهدة؟ ..

هل كان الاتفاق مع إسرائيل مستحيلا ؟ ..

نعم كنا نراه كذلك ..

هل مسح بقع الدم ووصمة العار بالانتصار يحل كل مشاكلنا ؟ ..

الجواب : طبعا لا . ففى النفس مافيها . وفى القلب وفى العقل وفى التاريخ ..

إذن فكيف ننهى كل ذلك ؟ ! ..

كنا نتساءل . ولكن لم يكن أحد يعرف جوابا . لأن السؤال بلا إجابة . فلا أحد قد سأل نفسه عن النهاية . إنما الشعور العام أن هذه حالة بدأت . لانعرف متى .. وقد تنتهى ولانعرف متى ..

إن رجالا فى التاريخ قد قاموا بأعمال جليلة . وذلك بأن قضوا على نزاعات دموية . وصراعات أبدية .. فقد تمكن بن جوريون وأديناور معا . من تسوية العلاقات بين إسرائيل وألمانيا ..

واستطاع نيكسون أن يتحالف مع الصين ..

واستطاع ديجول أن يعطى للجزائر حريتها . مخالفا كل الذين اختاروه رئيسا لفرنسا ..

واستطاع فيلى برانت أن يعيد الأخوة بين ألمانيا شرقا وألمانيا غربا ..

ولكن المبادرة التى اتخذها الرئيس السادات منذ ثلاث سنوات كانت أكبر من كل ماقام به هؤلاء الزعماء .. فقد استطاع

بخطوة واحدة إلى القدس أن يغير تاريخ المنطقة . وأن يضيء الأمل لكل الدول المتجاورة المتنازعة في العالم أن تحل مشاكلها المستعصية في زيارة واحدة ..

وأمام هذه الجرأة يقف حكام العالم كله ثلاثة صفوف :

الساسة : وهم الذين يستطيعون أن يقيموا صروحا من طوب وحجارة وقواعد معروفة

فهم رجال يتحركون في إطارات محددة ..

والحكام : وهم الذين يستطيعون أن يقيموا صروحا من مادة معروفة وفقا لقواعد معروفة . ولكن الذي يصنعونه شيء جديد . لم يكن هناك . إنما هم بالذكاء والممارسة قد حققوا ذلك

وأخيرًا هؤلاء النادرون من الساسة والحكام الذين يصنعون صروحا لم تكن هناك . لامادتها ولاقواعدها . إنما يستخدمون الخيال والشجاعة . فتكون أعمالهم مذهلة . ولأنها مذهلة فهي سابقة على عصرهم . ومتقدمة على أوانهم .. ولذلك فهم هؤلاء الذين تضع الشعوب على رءوسهم تيجانا من الشوك .. وبعد ذلك تعتذر لهم عن سوء الفهم والإساءة الجاهلة !..

ولكن الرئيس السادات قد انفرد بين هذا الطراز من الساسة بأن مئات الملايين قد باركت شجاعته وقدرته على تغيير مسار التاريخ ..

فأصبحت المبادرة نموذجا جديدا لكيف تكون العلاقة بين الجار والجار . لقد أعطى صورة متحضرة للعلاقة بين الأعداء من المصريين المسلمين والإسرائيليين اليهود . بين أعداء الأمس ضحايا أربع حروب ..

فإذا كانت هذه العلاقة المستحيلة أصبحت ممكنة . مع كل الخلافات اللغوية والدينية والعنصرية والحضارية والنفسية . فكيف لاتكون علاقاتنا الطيبة نحن العرب ممكنة منية ؟..

ثم كيف لايكون سلام بيننا جميعا مسلمين ومسيحيين ويهودا .. وفي ذلك رخاء للجميع ؟..

إن خطوة الرئيس السادات قد جاءت سابقة لعصره

ومن عاداتنا نحن العرب أن نرد بسرعة : فنرفض . وأن نرد ببطء : فنقبل مارفضناه

وما نزال نحن العرب في حالة الرفض . الرفض لمصر . والرفض لكل الذين رفضوا مصر ..

وإذا كان المنطق يقول لنا : إن نفي النفي : إثبات .. وإن رفض الرفض : قبول . فإننا نحن العرب لسنا منطقيين .. إننا عشيون عابثون ! ..

لأننا رافضون دون أن ندري ما الذي نرفضه ..

⊡⊡⊡

وفي الذكرى الثالثة لمبادرة السلام تتقدم مصر بمبادرة أخرى لكل المسلمين والعرب : تعالوا جميعا إلى كلمة واحدة وطريق واحد مادام هدفنا واحدا وهو السلام والإسلام . أو الإسلام الذي هو سلام ..

ولكن الإسلام لم يردع المسلمين عن قتل المسلمين – ولاتزال هذه هي شريعة الدول الإسلامية ..

وأكثر الحروب في التاريخ هي حروب دينية : حروب الهلال أو حروب الصليب أو الصليب والهلال معا . أو حروب الصليب والهلال ونجمة داود . وكلها تقتل عباد الله باسم الله – أعوذ بالله ! ..

وقديما قال نابليون : إن هناك قوتين في العالم : السيف وكتاب الله . وسوف ينتصر الكتاب – وهي عبارة لم تكن صحيحة في أي عصر . فقد تآزر السيف والكتاب إدارة المعارك الدموية آلاف السنين ..

ونحن لسنا في حاجة إلى أن نعيد التاريخ كله لنعرف أن السلام أمكن . وأن عصورا كثيرة شهدت السلام . وشهدت الحرية . وقد جاءت من بعدها عصور مظلمة أطاحت بالإيمان والمؤمنين .. ولكن إذا كانت الحرب نهاية السلام . فلماذا نعيش النهاية قبل وقوعها ؟.. وإذا كان الموت نهاية كل حي . فلماذا نسيل حياتنا بأن نتمدد في أكفاننا انتظارا للنهاية ؟..

إن التاريخ القريب جدا .. التاريخ الذي عمره ثلاث سنوات يقول لنا : إن مبادرة السلام كانت وسوف تبقى نموذجا للشجاعة والأمل والحسم والنجاح والبصيرة والمستقبل في لحظة واحدة . لحظة انفتح باب طائرة مصرية تحمل رقم واحد . ويخرج من بابها في مواجهة ألف كاميرا تليفزيونية : أنور السادات ..

لقد أمكن السلام . ونحن ماضون فيه بين أعدى أعدائنا : إسرائيل .. فكيف لايكون سلام بين الأشقاء العرب المسلمين ؟..

ماالذي ينقص العرب ؟ تنقصهم الصراحة .

وما الذي ينقص صراحتهم ؟.. تنقصها : الشجاعة .

وماالذي ينقص شجاعتهم ؟.. ينقصها : الرجل

وأين هو الرجل ؟..

إن رجال أمتنا كثيرون . إن لم يكونوا في الحكم فهم في الطريق إليه .. إنهم الشعب المسلم العربي من أندونيسيا إلى المغرب . ومن مصر إلى الصومال ..

وما الذي ينقص الرجال المسلمين العرب في كل مكان ؟..

شيء واحد : أن يفعلوا الآن . فإن عيوبنا نحن العرب أن نؤجل عمل اليوم إلى مابعد غد ! ..

وفي مذكرات القائد الأمريكي ماك آرثر يقول : إن أهم أسباب الهزيمة في أية حرب أن يقول أحد القادة : ليس الآن .

بل الآن وفورا ودون تردد يجب أن نفعل شيئاً ! ..

كما أن دموع العين تجف . فإن الدماء أيضا .. وكذلك كل حبر على ورق ..

وسوف تبقى دائما : الرغبة في أن نبحث عن الشيء الجديد . المعنى الجديد . والطريق الجديد والهدف الكبير .. ورفاهية شعبنا .

وأساتذتنا الإغريق قالوا لنا : إن الحجر المتحرك لاينبت عليه العشب .. أي أن الحجر الذي تحركه الأحقاد والحروب . لن تنبت عليه الرفاهية في ظل السلام ..

ولارفاهية بغير سلام . ولاسلام بغير حرية من أحقادنا ومخاوفنا .

صحيح أن الحرية يكرهها أكثر الحكام ورجال الدين . ولكن لابد من قدر كبير منها ليكون هناك حكم ودين .

وعلى الرغم من أن الحرية قد حطمت عروشا ومعابد . فإن هذه العروش والمعابد قد قامت عليها أيضا ..

ولاتزال الحرية هي وردة العدل وعطر الرحمة . ولاتزال الحرية هي : البذرة والتربة والماء والهواء والنور والأمل والندى والمطر لكل تقدم وحب وسعادة في التاريخ ..

وإذا كان الإسلام يدعو إلى السلام . فليس أحق من المسلمين بالسلام . ورحمة الشعوب . وبركات الله ! .. □